

دكتور محمد ناصر

مفاتيح زكرياء



42

نشر جمعية التراث



المغرب العربي الكبير في شعره

لا نحسب أن إطلاق لقب (شاعر المغرب العربي) على مفدي زكرياء ، هو من قبيل إطلاق التسميات والألقاب جزافا ، أو هو من المحاولات المفتعلة لتصنيف الشعراء بإضفاء بعض العلامات المميزة لهم مبالغة أو ادعاء ، فإن هذه التسمية في حقيقة أمرها ، تعريف بالشاعر أكثر من كونها تشريفا له .

وإذا جاز أن يختلف النقاد والدارسون حول التشريف إن كان تقييما لشاعرية مفدي زكرياء ، فلا أحسبهم يختلفون حول أحقيته بهذا التعريف الذي ينبثق من خلال أعماله الشعرية ليدل على صاحبه كما تدل القسّمات والملاحم الجسدية ، والنفسية ، والعقلية ، على النسبة الوثيقة الموجودة بين الابن وأبيه .

إن أهمية شعر مفدي زكرياء في هذا الاتجاه تكمن في تميزه الواضح عن غيره من الشعراء الذين عالجوا قضية المغرب الكبير ، فقد نجد هذه القضية مطروحة عند هذا الشاعر أو ذاك ، ولكن لا تعدو كونها خواطر سريعة وتلميحات عابرة تكتفي ببعض الأبيات في هذه القصيدة أو تلك ، أما عند مفدي زكرياء فتغدو عقيدة راسخة تمتد جذورها في أعماق أعماله الشعرية ومبدأ سياسيا ناضل من أجل تحقيقه منذ يفاعته حتى آخر لحظات عمره ، ومشاركة فعلية في المؤتمرات والملتقيات الوطنية ، وتواجدا منفعلا عبر كل مراحل شعره الاستنهاضي والنضالي ، والثوري ، أصبحت معه هذه القضية فكرة محورية دار حولها شعره منذ سنة (1925 - حتى سنة 1977) .

ومن هنا يعتبر شعره سجلا خافلا لتطورات الأحداث السياسية ، والثقافية ، والاجتماعية ، في المغرب الكبير ، وصورة صادقة من تاريخه تنتفض بالمشاعر الطافحة فرحا وترحا آمالا وآلاما ، فقد استطاع زكرياء بشاعريته المهمة أن يبرز من خلال (اللب المقدس)⁽¹⁾ (وإلياذة الجزائر)⁽²⁾ الوجه المشرف للجزائر الشائرة وأن يرسم في

(ظلال الزيتون)⁽³⁾ الطلعة المشرقة لتونس عبر مراحل كفاحها ، ويستلهم من (وحي الأطلس)⁽⁴⁾ نضال المغرب الأقصى قبل الإستقلال وبعده .

ومن خلال هذه الدراسة المتواضعة سنحاول استجلاء ملامح هذه القضية المصيرية وتبين من خلال شعر الشاعر مواقفه وآراءه ، رؤاه وتطلعاته ، على أن نكتفي هنا بدراسة القصائد التي ما تزال طي الدوريات الجزائرية والتونسية ، لم تشملها دواوين الشاعر بالنشر ، تفاديا للتكرار وسعيا الى الكشف عن انتاج مفدي زكرياء في فترة تعد من أخصب فترات عمره عطاء وشاعرية ، وهي الفترة الممتدة ما بين (1925 - 1955) ، ومن خلالها نشارك في إظهار جانب من جوانب شعرنا العربي في المغرب الكبير ، تجاه قضية هامة ما فتئت أمنية غالية في حنايا شعبنا .

كانت البداية الحقيقية التي خطاها مفدي زكرياء في ميدان كتابة الشعر قصيدة وطنية عن (ثورة الريف) في سنة (1925) وهذه البداية تعد في حقيقة أمرها ذات دلالة وطنية هامة ، فمن المعروف لدى متتبعي تاريخ النهضة في المغرب العربي أن ثورة الريف تحت زعامة الأمير عبد الكريم الخطابي ضد الاسبان من أبرز الثورات التي تمخضت عنها تطورات الأحداث العالمية بعد الحرب العالمية الأولى ، وكانت من أقوى ردود فعل الشعوب المضطهدة تجاه الاستعمار الغربي الاستيطاني ، مما جعل الحركات الإصلاحية والوطنية في المغرب العربي تتضامن معها ، وتتعاطف حولها تعاطفا قويا ، وترى فيها صورة للصراع بين المغرب الاسلامي ، والغرب المسيحي .

فلم يكن من قبيل الصدفة اذا أن تكون أول قصيدة يدخل بها الشاعر مفدي زكرياء عالم الشهرة قصيدته (الى الريفين)⁽⁵⁾ التي وصف فيها مشاعره المتأججة تجاه ثورة الريف معبرا من خلال ذلك عن تطلعاته الوطنية ، وإيمانه الراسخ بأن النضال المسلح هو الحل الوحيد لافتكاك الحقوق المغتصبة .

وبما أن مفدي زكرياء كان إبنا طالبا مدرسيا يتلقى علومه بتونس ، فقد لقي من الصحافة التونسية مجالا مشجعا لنشر قصيدته تلك ، ووجد في بيئة تونس الثقافية المفتحة طريقا الى الشهرة ، ومساعدة قويا على السير قدما في هذا الطريق الوطني فان هذا الشاب اليافع الذي لم يتجاوز السابعة عشرة من عمره لم يتردد قط في نشر قصيدته المشار اليها بالجريدتين التونسييتين (لسان الشعب)⁽⁶⁾ و (الصواب)⁽⁷⁾ بل

دكتور محمد ناطق

مفاتيح زكرياء

شاعر النضال والثورة

دراسة ونصوص

طبعة ثانية مزيدة ومنقحة

بها نصوص شعرية ونثرية لأول مرة .

نشر «جمعية التراث» - العطف - (غرداية)

إنه تجاوز بها حدود المغرب العربي لتصل الى القارىء في المشرق العربي من خلال جريدتين مصريتين مشهورتين هما (اللواء) و (الأخبار) وقد قدمها مصطفى كامل بجريدته (اللواء) باعجاب كبير على أنها نموذج للوطنية المتدفقة في حنايا أبناء المغرب العربي ، وظل الشاب المتحمس ينشد قصيدته بنفسه على منبر نادي الحزب الحر الدستوري المرات العديدة مما دفع بالسلطة الاستعمارية الى اعتقاله مدة خمسة عشر يوما⁽⁸⁾ عقابا له على جرأته الثورية وبذلك أصبح الشعر منذ الخطوة الأولى سبب محنة زكرياء ، والايمان بالمجاهة العلنية طريقه الى المحن والآلام .

وبالعودة الى مضمون هذه القصيدة ، تتضح لنا جليا هذه الروح الاسلامية القوية المتدفقة من كل بيت من أبياتها ، إنها امتداد لهذا المنظر الاسلامي الذي كان سائدا لدى الحركات الإصلاحية والوطنية في بداية النهضة ، فقد ابتلي أبناء المغرب العربي باحتلال لاتيني مسيحي ما فتئ يطبق ضدهم سياسة عنصرية تسعى الى كبت المشاعر الاسلامية عن طريق العسكرين حيناً ، وعن طريق المبشرين حيناً آخر ، ومن ثم فإن الشاعر كان يرى في جهاد الريفيين ضد الاسبان امتدادا لجهاد المسلمين ضد الكفر ، وأن قتالهم ضد العدو المحتل إنما هو قتال بين الصليب المسيحي ، والهلل الاسلامي .

ذلك ما دفع الشاعر الى التركيز على فكرة الشهادة في سبيل الله والوطن ، والصمود المستميت لتحرير هذا الثرى الغالي الذي يضمخه الفاتحون المسلمون بدمائهم الزكية ، وتغدو المعركة جهادا مقدسا يحمل رايته جبريل ، ويشر به محمد رسول الله ﷺ لأنه علامة على نهضة المسلمين لاسترجاع حقهم المغتصب ، ودليل على صحة وطنية عارمة بدخود دام سنين طويلة :

أجبريل هلل بأي الظفر وكبر ، وخط جليل الخبر
ورف بأجنحة النصر فو ق بني الريف حول القنا المشتجر
ورتل على الجيش «ان تنصروا الله ينصركم يبلوغ الوطر
وأعمل اللواء لهام الثر يا ، وسر للأمام بتلك الزمر
وأبلغ رسول البرية أح مد هادي الشريعة بادي البشر
بأن الهلال على أفق العز والمجد ، بعد الأقول ، ظهر⁽⁹⁾

وتتجلى الرؤية الاسلامية الشاملة في هذه القصيدة بالتذكير المستمر بالأبطال

الفاتحين الذين يضخون ثرى هذا الوطن المقدس بدمائهم الطاهرة ، ويحرص الشاعر على ذكر أسمائهم واحدا واحدا عقبه بن نافع ، حسان بن النعمان ، طارق بن زياد ، موسى بن نصير ، ويضمن أبياته قوله «طارق» الاستبالية المشهورة أمام جيش الفتح الأندلسي بعد أن أحرق السفن : (العدو أمامكم والبحر وراءكم فليس لكم والله الا الموت أو النصر) فكأن زكرياء يريد من بني الريف أن يكونوا مثل أجدادهم الذين قهروا أسبان الأمس حين فتحوا الأندلس ، فليس من الصعب عليهم أن يحققوا الانتصار - وهم يدافعون عن أرضهم - على أسبان اليوم . وهو يقدر كل التقدير بأن الجهاد سيكون مريرا والحرب ضروسا ، وطريق الحرية مليئا بالضحايا ولكن في سبيل الكرامة يهون كل صعب ويرخص كل غال .

بني الريف من كان يهوى الحياة يهون عليه ركوب الخطر
فعرش السعادة لا يبتنى لقوم ، سوى فوق هام آخر
وبين البلاد ودستورها ضحايا نفوس ، وسجن أسر
ومم الفخر الا على ضمّر تلوح سنابكها بالشر
ولن يبلغ العز الا الذي على رشف كأس العذاب صبر
فحرية الشعب ، صاح ، دما ء وهل مهرها غير هام البشر
فكونوا الفداء وكونوا الضحايا ليحي الهلال ، ويبقى الأثر⁽¹⁰⁾

من الواضح هنا أن الشاعر يستخدم الأسلوب التعريضي الذي يمكن الاطلاق عليه «إياك أعني واسمعي يا جارة» فما من شك في أنه حين وجه الخطاب الى أبناء الريف ويطلب منهم الجهاد البطولي ، إنما يتوجه من خلال ذلك إلى أبناء الجزائر والمغرب العربي أيضا «ليكونوا الفداء ، وليكونوا الضحايا» فقد كان المسلمون في المغرب الكبير يتلقون من اضطهاد الفرنسيين لهم ، مالا يقل عن تلقي الريفيين من اضطهاد الأسبان . وذلك ما يفسر لنا مجيء الأبيات في شكل أبيات حكيم لا توجه الى شخص أو شعب بعينه بقدر ما يصح أن توجه الى كل من يتطابق حاله معها .

وقد كان الشعراء الجزائريون يستخدمون هذا الأسلوب في العشرينيات والثلاثينيات فرارا من أذى السلطة ، وتحايلا للتفلت من قلم الرقابة والمستعمر الفرنسي شرس الطباع ، إرهابي الحكم ، يحاسب على الخاطرة والهمس ، وذلك ما

جعل الشعراء يتحايلون في سبيل التعبير عن مشاعرهم وأفكارهم ، بهذه الأساليب الرامية .

وهكذا يتضح من خلال هذه التجربة التي هي باكورة أولى من بواكير الشاعر هذه الروح الثورية التي شحنت لغته الشعرية ، وقد تمثلت في استخدام العبارات القوية ، والإيقاع الموسيقي الحاد الذي اختار له بحر (المتقارب) وهو بحر معروف بإيقاعه السريع الذي يلائم الموضوعات الحماسية ويقرب العمل الشعري عادة من التلحين والغناء ، ولعل هذا الإيقاع هو الذي جعل الأمر يختلط على صاحب جريدة «لسان الشعب» فقدم القصيدة للقراء على أنها «نشيد حماسي»⁽¹¹⁾ .

ويحتل الحديث عن الإسلام منزلة مرموقة من شعر مفدي زكرياء ويتميز بعمله الشعري هذا الإمتزاج الذي يكون المادة الشعرية . فإضافة الى المضامين والأفكار التي ينطلق في معالجتها من منظور اسلامي ، نجد لغته الشعرية التي تستمد من الأجواء الاسلامية ، وصورة الشعرية المقتبسة عن القرآن الكريم والتراث العربي الاسلامي كما أوضحنا ذلك في محله في هذا البحث .

ويلقانا زكرياء منذ مطلع حياته الشعرية في قصيدة طويلة يكرسها لوصف الواقع الاسلامي المرير وهي تعد من بواكير شعره الاستنهاضي ، تحت عنوان «الاسلام يتكلم» على غرار «اللغة العربية تتكلم» لحافظ ابراهيم فكما صور حافظ الواقع الذي آلت اليه اللغة العربية بعد عز ، صور مفدي زكرياء ما آل اليه المسلمون من ذلة ومهانة بعد قوة واستظهار ، وحتى يكون الأسلوب عاطفيا جياشا ، مؤثرا في النفوس ، أرسل الخطاب على لسان الاسلام نفسه الذي راح يستنهض أبناءه ويحثهم على الجهاد المقدس ليعيدوا «لأبيهم» سالف مجده ، ولكن بالعمل الجماعي المتضامن المبني على العلم ، لأن محنة المسلمين جاءت من جهلهم ءاولا ، ومن تفرقهم ثانيا ، ومن عبوديتهم ثالثا .

بني لقد آن الكفاح فجددوا عزائم أحرار ، وأنفاس أقيال وحلوا رجال العلم دوما فهذه مدارس عصر فاض فيكم بسلسال وكونوا رجالا لا يبالون أن يروا صروف الرزايا دون تحقيق آمال ودونكم جو السعادة إنما بلوغ أمانكم بتحطيم أغلال...⁽¹²⁾

وعلى غرار منحاه في معالجاته الإسلامية نراه يركز على الوجه النضالي للإسلام ويبرز وجهه الجهادي أيام الفتوحات ، وفي هذا إحياء مقصود ، وتلميح يتماشى مع مشاعر الجزائريين النفسية والاجتماعية ، التي تمدهم بالقوة المعنوية والمادية لمواجهة الاستعمار الصليبي .

وأيقنت أن المجد سبل خطيرة فقدمت دون المجد روعي وآمالي
فما المجد الا جنة دون وصلها تناثر أعناق ، وتمزيق أوصال
تدرعت بالعزم الصدوق فلم تكن سوى القبة الزرقاء مطمح آمالي...⁽¹³⁾
إن الكلمات الواردة في النص السابق مثل المجد ، والجنة ، والقبة الزرقاء ، ترمز الى الاستقلال والحرية ، والسياق الشعري الذي وضعت فيه يدل دلالة واضحة على ذلك .

ظل مفدي زكرياء طوال الفترة الممتدة ما بين (1925 - 1932) يبحث عن التنظيم السياسي الذي يستجيب ورغائبه الوطنية ، وما لبث أن وجد في منظمة طلاب شمال إفريقيا بغيته ، فقد رأى في هذا التجمع الثقافي الطلابي نموذجا لوحدة العمل بين شعوب المغرب الكبير ، ورأى في مؤتمرات الطلاب وما يجري فيها من نقاش ، وعيا سياسيا واجتماعية دفعاه الى الانضمام للعمل ضمن صفوفهم ، فشارك في أغلب المؤتمرات التي عقدها في الثلاثينيات .

وهكذا شارك في المؤتمر الذي عقدته جمعية الطلبة في الجزائر «بنادي الترقى» في شهر أوت من سنة 1932 ، فكان حاضرا كل أيامه ، مسجلا أحداثه بشعره ، متألقا بمواقفه ومناقشاته ، وفي هذا المؤتمر الذي حضره نخبة من أبناء المغرب الكبير - وهم خلاصة تطلعاته المستقبلية ، وطلبة كفاحه - وأتته الفرصة ليصدق بمعتقداته السياسية ، ويعبر أمام تلك النخبة الواعية عن آماله العريضة في توحيد العمل السياسي في المغرب العربي ، طريقا لتحريره وخطوة أولى في سبيل نهضته ، لقد كانت الظروف السياسية والاجتماعية تؤهل فئة الطلاب المثقفين لتحمل أمانة الحفاظ على المقومات الأساسية لشعوب المغرب الكبير أمام الغزو الفكري الفرنسي الذي ظلت سلطاته تعمل جاهدة في اطار احتفالاتها بالعيد المائوي لاحتلال الجزائر .

وكان الوضع المتخلف الذي يتخبط فيه المغرب الكبير جهلا وافتراقا وضياعا

يحتاج الى صرخة قوية توقظه من سباته ، وعوامل وحدة المغرب في - منظور زكرياء - موجودة فعلا رغم الاستعمار الفرنسي الذي يعمل على قتلها ، إنها تضرب بجذورها الأصلية في أعماق التاريخ الاسلامي للمغرب الكبير ، إنها وحدة قلما وجدت في أي مكان من أمكنة العالم الأخرى ، لأنها تتوفر على كل مقومات التوحيد : الوحدة الروحية التي يجسدها ويقوم بها الدين الإسلامي ، والوحدة اللغوية التي ينطق بها لسان عربي مبين واحد ، والوحدة التاريخية التي تشمخ بها حضارة عريقة حافلة بالأجداد والبطولات ، فعلام النوم اذا ، وقد توفرت كل وسائل العمل المشترك :

نهوضا بني افريقيا من سباتكم	فإن عيون الحادثات بمصراد
تناديكم الأجداد من رمم الثرى	فلبوا الى العلياء دعوة أجداد
نهوضا بنا نحو الحياة ونظرة	الى أمة أمست ضحية أحقاد
كفانا شقاء من وبال شقاقتنا	وتمزيق مجموع ، وتشيت أفراد
فهل نحن الا أمة عربية	شقيقة أرواح ، قسمة أكباد
وهل نحن إلا أمة «أحمدية»	مقدسة غرا سليلة أجداد
وهل نحن إلا في الجراحات إخوة	بنو رحم شقيقة ذات أولاد
وثيقة حب لا يفرق بينها	تباين مرعى في سهول وأنجاد (14)

لقد شهدت النهضة في العشرينيات والثلاثينيات دعوات إصلاحية تركز في مخططاتها على الدعوة الى العلم ، ومقاومة الجهل ، والتخلف الفكري باعتبار العلم السلاح الأساسي الذي يجب أن يستخدم في معركة المقاومة لإثبات الهوية الشخصية وباعتباره أكبر مقوم يزرع الثقة في النفوس لتعرف مالها وما عليها وتلحق بالتالي بركب مدنية القرن العشرين ، التي دخلت بالعلوم عصرا جديدا مدعشا . وكان الشعر يتحمل أمانة هذه الرسالة فانعكس فيه هذا الطابع الإستنهاضي الحاد متمثلا في الأسلوب الخطابي العارم الذي يجسد طابع الرحلة التي تمر بها أقطار المغرب ويتلاءم معها .

كفى شرفا يا قوم بالعلم فانهضوا	ورروا بعلم غلة الوطن الصادي
الى م الرضا بالدون ، والعلم صارخ	بنا نعتلي للعزم مقعد أسيا

ألم نك أولى الناس بالعز إنه	وليد حاننا من جودود لأحفاد
ألم نك أولى الناس بالشمس إنها	من الشرق صاف نورها ساطع بادي
ألم نك أولى الناس بالخلد إننا	بنو الشرق من أرواح خلد وأجساد
نهوضا بني الشرق الكرام ورحمة	لذلة أوطان تدق كأوتاد

ومفدي زكرياء حين يخاطب الطلاب ، أبناء المغرب الكبير ، وهو يدعوهم الى العلم لا ينسى أن يخاطب فيهم نخوة الإعتزاز بالماضي ، ويشير في أعماقهم شرف الإنتاء الحضاري الأصل الى اللغة العربية ، والدين الإسلامي ، «باعتبار اللغة العربية أما ، والدين الإسلامي أبا» (15) بل إنه ليحملهم أمانة الحراسة على هذا التراث فقد يكون بين الطلاب من أصبح بريق المدنية الغربية يخطف بصره فيحول بينه وبين الرؤية الواضحة ، هذا من جانب ، ومن جانب آخر فإن الربط المستمر بين الأجيال يقصد به الرد الصريح على ادعاءات الاستعمار الفرنسي بتذويب شخصية أبناء المغرب الكبير ، وفضح ادعاءاته ومخططاته التي اتخذت في هذه الآونة لبوس المشاريع متشحة بأزياء التجنس ، والالحاق ، والادماج .

سلاما بني الفصحى وحراس جنة	على بايها رضوان علم وإرشاد
سلاما بني فاس ، وأحفاد رستم	وفتية (ديدون) (16) وأبناء حماد
بني الشرق هلا اليوم نظرة راحم	الى لغة أمست رهينة أصفاد
الى لغة تشكو عقوق رجالها	وقد أصبحت للغير كعبة قصاد
ألا ترقبون الله فيها فإنها	لسان كتاب من هدى الله وقاد
هي البلبل الصداح من عهد آدم	على غصن ريان بالوحي مياد
هي المثل الأعلى وينبوع حكمة	بها ضربت دون اللغات بأسداد (17)

وظل مفدي زكرياء طيلة أيام المؤتمر يلقي القصائد ، ويذكر الشباب كل مرة بمبادئ التوحيد ، والعمل المشترك في إطار مغرب عربي إسلامي ، وما فتى كلما أنشد قصيدة معيدا على الأسماع بأن أسس التوحيد موجودة فعلا وهي تمتد عميقة في صلب تاريخ المغرب الاسلامي ، وأن الأجداد يطالبون الأحفاد بمراعاة هذا العهد الذي هو أمانة في أعناقهم ، ولن يوفوه الا اذا حققوه عمليا ، وما دام الأمر عهدا بتطلب الوفاء ، وبمينا مقدسة تنتظر البر ، فان كل من يسعى الى خيائته يعد

«ظالما مجرما» يجب أن يضرب على يديه .

فكف البلاد تعاهداً وعهد الجود لكم أبرقاً
فقدوا اليمين بين الوفاً ووفوا لها العهد والموثقاً
وصيحوا فلا عاش ، لا عاش من لوحدة إفريقيا فرقاً
وتبت يدا ظالم مجرم بروح تضامننا مزقاً .. (18)

وينعقد المؤتمر الرابع لطلبة شمال إفريقيا بقاعة (الخلدونية) بتونس سنة (1934) ويلعب فيه مفدي زكرياء لمعانا يشد الأنظار ، ويتفوق بفصاحته وأرائه تفوقاً يبهز الأنفاس ، وقد تميز بذلك الخطاب الحار الذي أوضح فيه إيمانه الراسخ بوحدة المغرب العربي الكبير ، ولكي يكون عملياً اقترح على المؤتمرين ما أطلق عليه (ميثاق التوحيد) وتبلغ به الحماسة والإيمان حدا دفعه الى اعتبار ذلك لا يقل عن عقيدته الدينية التي يموت من أجلها ، وهو لهذا الاعتقاد الراسخ سمي البنود العشرة التي تتضمن ايدولوجية (التوحيد) (عقيدة التوحيد) .

وقد أعادت جريدة «تونس الفتاة» في عددها السابع عشر في سنة (1939) نشر تلك البنود حتى تعيد الى أذهان الشباب المجاهد في المغرب العربي الكبير خطة الجهاد وهو يتقبل عهد المواجهة العلنية مع المستعمر الفرنسي ، ولكي نترك الفرصة للقارئ لاستخلاص ما يمكنه استخلاصه من تلك البنود العشرة نقدم له هذه الوثيقة بنصها .

عقيدة التوحيد (1)

لشباب شمال إفريقيا

هذه عشرة عقائد مقتبسة من خطبة كان ألقاها المجاهد الكبير مفدي زكرياء في الحفلة الافتتاحية بمؤتمر طلبة شمال إفريقيا الرابع الذي انعقد بقاعة الخلدونية (تونس) سنة 1934 وهي جديرة بأن يطلع عليها كل شاب شمالي إفريقي وستحدث عنها :

1 - آمنت بالله رباً ، وبالاسلام ديناً ، وبالقرآن اماماً ، وبالكعبة قبله وبسيدنا محمد ﷺ نبياً ورسولاً . وبشمال إفريقيا وطناً واحداً لا يتجزأ .

2 - أقسم بوحداية الله أنني أومن بوحداية شمال إفريقيا وأعمل لها ما دام في قلب خافق ، ودم دافق ، ونفس عالق .

3 - الاسلام ديننا - شمال إفريقيا وطننا - العربية لغتنا .

4 - لست مسلماً ولا مؤمناً ولا عربياً ، اذا لم أبذل نفسي ومالي ودمي في سبيل تحرير وطني العزيز (شمال إفريقيا) من أغلال العبودية وإخراجه من ظلمات الجهل والفاقة الى نور العلم والرفاهية والعيش السعيد .

5 - كل مسلم بشمال إفريقيا يؤمن بالله ورسوله ووحدة شاله هو أخي وقسم روحي فلا أفرق بين تونسي وجزائري ومغربي ، ولا بين مالكي وحنفي وشافعي واباضي وحنبلي . ولا بين عربي وقبائلي ، ولا بين مدني وقروي ولا بين حضري وافاقي ، بل كلهم اخواني أحبهم واحترمهم وأدافع عنهم ماداموا يعملون لله وللوطن واذا خالفت هذا المبدأ فأنني أعتبر نفسي أعظم خائن لدينه ووطنه .

6 - كل من عمل للتفرقة بين أجزاء وحدة وطني (شمال إفريقيا) اعتبره أكبر عدو لي ولوطني وأحاربه بكل وسيلة ولو كان أبي الذي أنجبني أو أخي من أبي وأمي .

7 - وطني شمال إفريقيا - وطن ماجد له ذاتيته المقدسة وتاريخه الباذخ - ولغته الكريمة ، وجنسيته الشريفة ، وكل من سولت له نفسه الانسلاخ عن هذه الجنسية أو المروق من هذه الذاتية اعتبرته أبداً من وحدة وطني ، وخارجاً عن جماعة المسلمين ، ليدخل لقيطاً ملحقاً بجنسية غيره ، فعليه غضب الرب وغضب الشعب .

8 - قد تبين الرشد من الغي ، فلا سياسة اندماج ، ولا سياسة استجداء نحن طلاب حق مغضوب ، وتراث مسلوب ، فيجب أن نناله وكفى فلا منزلة بين المنزلتين : أما وطني صميم ، وأما خائن أثيم ...

9 - نحن لا نبغض الاجناس فالكل عباد الله والأجانب الذين يعيشون في بلادنا نحترمهم ماداموا يحترمونا ، ولا نؤذيهم ماداموا لا يؤذوننا في حرياتنا وكرامتنا وخيرات بلادنا ، فاذا راعوا حق صاحب الدار راعينا حق الضيوف ، لهم مالنا ، وعليهم ما علينا ، بهذا أمر ديننا الحنيف وبهذا تأمر ضمائرنا الطاهرة .

10 - وطننا شمال إفريقيا جزء لا يتجزأ من جسم الشرق العربي نفرح لفرحه ونتألم لألمه ونتحرك لتحركه ونسكن لسكونه تربطنا به الى الأبد روابط اللغة والعروبة والاسلام .

وفي شهر سبتمبر من سنة 1935 انعقد المؤتمر بمدينة تلمسان ، وكانت ثلاث سنوات

من حياة المغرب العربي كافية لأن تتطور فيها لهجة الشاعر من مطالبة بالحقوق ، الى المطالبة بالمقاومة ، والجهد ، والفداء والتضحية .

مما يعد جرأة كبيرة من زكرياء ، قلما لمسنا لها نظيرا عند الشعراء الجزائريين الآخرين ، وكانت قصيدته في هذا المؤتمر حديث النوادي لما حملته من أفكار ثورية صريحة ، ولما تدفقت به أبياتها من معان سامية نبيلة حشد لها زكرياء امكانياته تصويرا وتعبيرا⁽¹⁹⁾ ومنذ البداية ركز الشاعر على إثارة النخوة العربية الإسلامية في ضامير الشباب بتوجيه الخطاب لهم على أنهم «نسل الفاتحين» الذين لم يعرفوا الإستكانة في تاريخهم الطويل ، ولم يرضوا بالذل ولو هزموا . وهذه آثار مدينتهم الموقودة تنتظر من أبنائها أن يرفعوا أسسها من جديد ليكونوا جديرين بالانتماء الى هذه الحضارة الخالدة التي ماتزال (تلسان) شاهدة بآثارها لها .

أهلا بنسل الفاتحين ومرحبا
هذي عظام الفاتحين من الثرى
وحيا لكم مدينته موؤودة
تلك الأبوة في جلال وقارها
واذا البنون رعوا حقوق أبيهم
نال البنون سعادة ونماء ..⁽²⁰⁾

وفي هذا المؤتمر ألقى مرة أخرى إلحاحا خاصا على وحدة المغرب العربي (التي فصل فيها التاريخ وقررها) ومن ثم فإن طريق الكفاح في سبيل التحرير يجب أن تكون واحدة أيضا ، ويؤكد مرة أخرى على إسلام وعروبة هذه الأرض التي تعطرها دماء الفاتحين المسلمين ، وإن أرضا تنتمي الى أولئك العظام لا يمكن أن تستكين للذل والشقاء أبدا ولو خضعت لسياسة الفرنسة والتسيخ قرنا وأمانة تحقيق هذه الآمال العريضة منوطة بأعناق الشباب وجه البلاد .

الدهر يحفظ والشباب حياله
جمع الهوى فيه ثلاثة أضلع
إن الجزائر في الغرام وتونسنا
نحن العروبة والشمال بلادنا
أرض مطهرة ، تضم ضلوعها
مهججا ، هناك ، زكية ودماء

بدم الصحابة قد تعطر ظهرها
وتعانقت فيها البنود خواقفا
شعب أغر وأمة عريضة
إن الحياة على الصغار جريمة
قدماء وآوى بطنها الشهداء
حراء تحمل للأنام رفاء
ما إن تطيق مذلة وشقاء
إني رأيت الصاغرين إماء ..⁽²¹⁾

إن زكرياء يدعو الشباب إلى الفداء ، وإلى التضحية بالدماء والمهج طريقا للتحرير ، ولكنه الى جانب ذلك يدعوهم أيضا الى التعبئة الثقافية والأخلاقية ليكونوا جديرين بتحمل مسؤولية بناء المغرب الكبير بعد الحصول على الإستقلال ، فإن أمانة البناء والتشييد لا تقل خطرا عن مسؤولية الجهاد والتحرير . ومن غير الطلاب تناط بعهدته المسؤوليتان إنهم «جند البلاد وحماة عرينها» .

جند البلاد ويا حماة عرينها
استقبلوا العصر الجديد بنهضة
العلم مفتاح الحياة فمن يحد
لو لم يكن للعلم أعظم حرمة
فابنوا المدارس في البلاد وهيئوا
ربوا نفوسكم على خلق الهدى
والدين إن الدين أعظم عدة
مدوا لنصرتها اليد البيضاء
علمية ، ودعوا الشكوك وراء
عن سبله ، فلقطد أراد فناء
لغدا رجالا قادة أكفاء
إن شئت حريصة وعلاء
فبدونه تغدو النفوس هباء ..⁽²²⁾

شهدت سنة (1937) في المغرب العربي أحداثا سياسية خطيرة ، تحولت فيها المواقف الوطنية تجاه الاستعمار الى مجابهة علنية ، وتوطدت فيها علائق الود والتعاون والتضامن بين الحركات الوطنية في الأقطار الثلاثة أكثر من أي وقت مضى ، وتضافرت الجهود والتكتلات لإفساد الخطط السياسية المدسوسة التي كانت السلطة الاستعمارية تعمل جاهدة لتطبيقها على المغرب العربي . وكان من أشهر هذه الخطط مشروع - بلوم فيوليت - الإدماجي الذي تأثرت من جرائه الوحدة الوطنية في الجزائر ولا سيما بعد انعقاد المؤتمر الاسلامي في جوان (1936) الذي كانت نتائجه سلبية ، وغاياته مريبة .

وفي أبريل من سنة (1937) عقد مهرجان ضم بتونس حضره الوطنيون من المغرب العربي من أجل توحيد خطط العمل السياسي لبناء وحدة الشمال الإفريقي

وقد ترأس مفدي زكرياء الوفد الجزائري الذي يمثل حزب الشعب الجزائري وألقى بهذه المناسبة قصيدته الرائعة التي تعتبر تكثيفا لآرائه حول وحدة المغرب الكبير ، كما استعرض فيها وقائع السياسة الاستعمارية في الجزائر ، وحق لهذه القصيدة أن يطلق عليها (بردة الوطنية الجزائرية)⁽²³⁾ لأنها كانت تجسم بحق صوت الجزائر الداوي في خضم مؤامرات الادماجيين ، وعزمها الصادق على التضامن المغربي رغم ما تتعرض له الحركة الوطنية من قمع واضطهاد ، وما يستهدف له زعمائها من إرهاب وملاحقة .⁽²⁴⁾

تونس ، والجزائر اليوم والمغرب شعب لن يستطيع انفصالا وحدة أحكم إلله سداها من يرد قطعها أراد محالا نبتت من أب كريم وام وسمت في الحياة عما وخالا وهنا يرفض مرة أخرى الحدود التي أقامها الاستعمار بين أقطار المغرب الكبير فهي في تقديره مصطنعة لا ارتباط لها بالواقع ، وهمية لا مكان لها في صدور أبناء الوطن الواحد ، وتلك ولا شك نظرة طموح ترفض الرضوخ للواقع أو التسليم به .

نصبوا بينها حدودا من الأذى واج جعلوا إن أردتم الكون سدا نحن روح مزاجه الضاد والبد نحن قوم على الولاء خلقنا يشهد الدهر ذكرنا والفعالا نحن شعب على الزمان عزيز عربي ، كالنيرين اشتعنا عكنا رمت افتراقا قربنا وعقدنا محبة واتصالا⁽²⁵⁾

ومن الاعتزاز ببطولة أبناء المغرب العربي في سبيل قضيتهم ، ذكر ما يتعرض له الوطنيون من سجن ، وإرهاب ، علامة تشريف على العزم الصادق على مواجهة الاستعمار بطرق أكثر صرامة ، وبأساليب أعنف مجاهدة ، ومن ثم فإن الشاعر يشيد بذكر سجناء (لوباف)⁽²⁶⁾ الذين يعتبر الشاعر سجنهم ليس تشريفا للنضال الوطني التونسي فحسب ، بل هو تشريف للنضال الوطني في المغرب العربي قاطبة ، لان السيف الذي يسل في وجه الاستعمار الفرنسي في أية بقعة من بقاع المغرب الكبير سيعمل على ارباكه وخلخله وجوده ، وسجين في جنوب تونس انما هو سجين من

أجل «الشمال الافريقي والشرق ، والفصحى» .
يا ضحايا (لوباف) أكرم (بلوبا ف) ، عرينا يخلف الأشبالا فتية في بلاد تونس ترجو توبة من ضلالها وانتصالا أنتم في شمال إفريقيا السيد سف ، اذا جردوا السيوف الصقالا أنتم الناس ، أيها الناس حزتم في البرايا الاكرام والاجلالا عشم للشمال ، والشرق ، والفصحى ، وقضيت الحياة نضالا ..⁽²⁷⁾

وكان لا بد من وقفة استصراخ وتحذير من مشروع (فيوليت) الخطير الذي يخول ظاهره حق المواطنة ومنح الحقوق السياسية ، ويعمل باطنه على القضاء على مميزات الشعب العربي المسلم عن طريق الفرنسة والتذويب ، وهو أمر لا ينجر خطره على الجزائريين وحدهم ، بل هو يتجاوز ذلك الى إصابة الوحدة بين شعوب المغرب بالتصدع والانشقاق ، فإن هذا المشروع كان يشكل في تلك المرحلة أثبت حاجز في طريق الوطنية ، وأكثر من ذلك في طريق الوحدة العربية بإقامته ستارا من الفرنسة بين تونس والجزائر ..⁽²⁸⁾

أيها الشعب والشمال جريح رشق القوم في حشاه النبالة أيها الشعب والجزائر تشكو في ثنايا الضلوع داء عضالا وتنادي بني العروبة وأمعت صماه ، قد أحكوا الإغتيال سطورا حولها برامج للمس سخ ، وحطوا على فناها الرحالا شبكة حاكها (فيوليت) للص سيد ، فطاروا لها خفافا ثقالا⁽²⁹⁾

وهنا يعرض زكرياء بالشاركين في المؤتمر الاسلامي الجزائري من اغتر بهذا المشروع وراح يعمل على إنجازه وتقريره .

فقد القوم رشدهم كالحجانيه فناتقوا الله أيها الجوع الغر ن ، وظنوا النعيق ، جهلا ، موالا إن شعبا على العروبة والإسلام ، قد شب ، لا يطيق فصالا إن تربا مضخا بدماء من جدد لا يستطيع اعتزالا إن جنسا مقدسا عرييا ليس يرض أن يستحيل خيالا حاولوا هضمه قديما فخابوا واستعدوا له قرونا طوالا

إن جنس النبي صعب على الهضم ، فإيا غرب كف عنك المحالا... (30) وفي غرة البحث عن القائد الملهم الذي يقود مسيرة المغرب العربي الى الطريق السوي عاد الزعيم عبد العزيز الثعالبي الى تونس بعد خمس عشرة سنة من النفي وصلة الثعالبي بالحركة الوطنية الجزائرية ، والاصلاحيين جد وثيقة ترجع الى أيام الحرب العالمية الأولى ، وتتلذذ العديد من زعماء الجزائر له أمر معروف أيضا ، ومن ثم رأى زكرياء في المهرجان الذي أقيم بهذه المناسبة عيداً وطنياً يشمل الشمال الإفريقي كله ، ولا يخص تونس وحدها ، وهو يرى في هذا الإحتفال العظيم مظهراً آخر من مظاهر وحدة الشمال الإفريقي .

ففي خضم الدسائس والمؤامرات التي كان الاستعمار يحكيها لتمزيق شعوب المغرب العربي ، وتشكيكها في أصالتها بما يطرحه في الساحة السياسية من مشاريع مدسوسة تتلون سمومها حسب مسمياتها ، ظهيرا بربريا ، أو تجنيسا بالجملة ، أو إدماجا سياسيا . في هذا الخضم المتنازع الذي تضللت فيه الرؤية لدى بعض ، وكادت بعض النفوس الضعيفة أن تغتر للمواعيد والوعود ، يصبح الزعيم الوطني بمثابة النور الذي يهدي السفن الضالة التي تتطاوح بها الأمواج العاتبة ، ويكون شخصه رمزا للوحدة والتآسك وجمع الشمل وبهذا غدا (الثعالبي) زعيما للشمال الإفريقي كله ، تنتظره الجموع بفارغ صبر ، من هذا المنظور اختار زكرياء لقصيدته تلك عنوانا له دلالة السياسية البعيدة (الشمال الإفريقي يتحد) (31) وفيها يقول :

أيتها الشعب والتهاني توالى	والمرات ينتظم عقوقا
يا زعيم الشمال والشرق ، يا من	ملا الشرق والشمال جهودا
إن شعب الجزائر اليوم قد جا	ء يني ، لواءك المعقودا
ويحييك باسمه «حزب شعب»	في المبادئ قد كان منك وليدا
فهو من روحك العظيمة جزء	فتقبل من بعضك التجيدا
وارع أرضا غدت فيها زعيما	ترتجي في جهودها التأيدا
لم تزل برة بمهدك فيها	والرجا لا يزال فيك وطيدا (32)

في هذه القصيدة يطرح قضية المغرب العربي على أنها قضية واحدة فليس ثمة قضية جزائرية ، وأخرى تونسية أو مغربية ، فما دام المستعمر هنا وهناك واحدا ، فلم

لا يكون التصدي لحل هذه القضية موحدا أيضا والعمل المشترك يجب أن يكون مقاسمة بين الشيوخ المحنكين الذي عركتهم التجارب والشباب المتحمسين الذين تتوثب في عروقهم دماء التضحية .

وقد كانت فكرة زكرياء هذه متطابقة مع فكرة حزب الشعب أو هي تعبير عنها ، فقد كان هذا الحزب يبني قاعدة نضاله على الجماهير الشعبية وهذا ما يفسر التفاتة الشاعر المستمرة الى الشعب ، سواء أكان ذلك في بياناته السياسية أم في قصائده الثورية ، وما توجيه خطابه الى الشعب العربي المسلم في المغرب العربي كله الا تعبير عن احساسه ذلك ، ويلمس القارئ هذه الحرارة العاطفية تتدفق من الأبيات ، وهو يعبر عن احساسه الفياض تجاه وطنه ، والوطن في مفهوم زكرياء لا يحد بحدود قطرية وإنما هو المغرب العربي الكبير من أدناه الى أقصاه ، لقد دأب في كل قصائده على رفض الحدود المصطنعة ، وتعود في كل شعره أن يستخدم كلمة وطني وهو يريد بها الوطن الكبير أولا وقبل كل شيء أنه حاضر في مخيلته فعلا ، حي في حنايا نفسه وفي أعماق قلبه ، لذا فهو يؤكد على اعتبار الحدود التي هي من عمل المستعمر حدودا وهمية هي عصي أو أسلاك ، أو علامات لا تحمل أي معنى أكثر من معناها الجامد .

قموها خديعة لثلاث	كذبوا لن تزال شعبا وحيدا
وأقاموا على الهضاب عصيا	لقبوها ، يا للنفاق ، حدودا
والجراحات بينها والأماناني	والأمانات لا تزال شهودا
وطني بالدم الزكي أفدي	ك ، يميننا شريفة وعهودا
وطني أنت جنة الخلد في الأر	ض ، فبهيات في الوري أن تبيدا
وطني إننا ضحاياك في السد	م ، وفي الحرب بغية أن تسودا
فاتخذنا إذا أردت سيوفنا	واتخذنا إذا أردت وقودا
نحن قوم جدودنا ملكوا الدد	يا ، فبهيات أن نعيش عبيدا
يافرنسا لا تجاهلينا فانا	قد نهضنا ، فلا نظيق ركودا
قد كرهنا حياة ظلم وجور	وسئنا الخراب والتبديدا
كل من يرتضي حياة هوان	عاش في أرضه الطريد الشريدا (33)

وفي هذه السنة نفسها تعرضت الوحدة الوطنية داخل المغرب الأقصى للانشقاق والتصدع وذلك بانشقاق العمل المغربي في شهر فيفري من سنة (1937) (34) ، واتخذت

السلطات الفرنسية صراعات الأحزاب ذريعة لحل حزب الكتلة الوطنية . وقد تأثر الرأي الإسلامي العام في المغرب العربي لهذه التطورات الخطيرة . ومن منظور أخوي وطني ، وقف مفدي زكرياء متألماً شديداً التألم لما تعرضت له الحركة الوطنية في المغرب الأقصى من تفرق ، وما يعصف بها من صراعات ، وحز في قلبه أن يعطي الوطنيون الفرصة للاستعمار الفرنسي ليغذي نار الخلاف ، وينفذ إلى الصفوف المتراسة فيحدث فيها هذه الثغرة . فما كان من زكرياء إلا أن نشر نداء مفتوحاً على صفحات جريدة «الأمة» (الجزائرية)⁽³⁵⁾ توجه به إلى «أبطال الكتلة الوطنية أشقاء الجهاد الوطني ، والفكرة المليية المقدسة» ، وعز عليه أن تضع كل جهود البناء التي دامت سنوات طويلة واستفرغت جهداً ، ومالاً ، ووقتاً ، وآلمه أن تجيء هذه الضربة الموجهة في وقت تحتاج فيه الوحدة الوطنية في المغرب الكبير إلى جمع القوى وتوحيد الصف وفي ظرف «أصبحنا نبني فيه دعائم لوحدة شمال إفريقيا كلها» .

وراح زكرياء يستخدم أسلوباً عاطفياً مثيراً لعله بذلك يثير النخوة العربية الإسلامية في النفوس «أيها الأخوة الكرام ، نناشدكم بحزمة الإسلام ، وشرف العروبة ، وقداصة الوطنية ، وذمام الأخوة ، ورحم اللغة الوطنية ، وكرامة شمال إفريقيا ، وباسم الأمانة العظيمة التي أناطت الأمة على عواقبكم ، واصطفاكم الله للاضطلاع بأعبائها ، أن تتحدوا وتتصاحفوا ، وتتصافحوا ، وتنضم صفوفكم كوحدة متراسة قوية ، دعامتها الإيمان والعقيدة ، وقوامها الوطنية والعروبة ، فإن شمال إفريقيا ينظركم عن كذب ☆

وهكذا كانت عند الشاعر حساسية وطنية تجاه كل الأحداث التي تتعرض لها الحركة الوطنية في المغرب الكبير ، يتابع تطوراتها باهتمام بالغ ، ويحرص على صلة الرحم بين زعمائها ، وقد كانت الأوضاع السياسية قبل الحرب العالمية الثانية تفرض تلك الحساسية وذلك الاهتمام .

☆ ☆ ☆

وتمخضت الحرب العالمية الثانية عن أحداث وطنية خطيرة في ساحة المغرب العربي قاطبة دفعت العمل الوطني إلى التكتل وتنسيق الجهود .

وكان اندلاع الثورة التحريرية الجزائرية قمة النضج التي انتهت إليه هذه الحركات

الوطنية ، رغم سلبيات بعضها ، وبات التأكيد على توحيد القوى ، وضم الصفوف وتنسيق العمل الوطني أكثر من أي وقت مضى .

وعندما أعلن استقلال المغرب الأقصى في سنة (1955) راح زكرياء يذكر السلطان محمد الخامس بمواثيق الجهاد بين الإخوة الأشقاء ، مصرحاً بأن استقلال المغرب الأقصى لن يتم إلا باستقلال باقي الأقطار في المغرب الكبير ، وأن منح الاستقلال لقطر دون آخر تشتيت للقوى الوطنية ، وإضعاف للحركة التحريرية .

إن الجزائر أمة عريضة تسعى إلى استقلالها وتجاهي
بارك فديتك يا محمد سعيها وجهادها ، واخلد مع الأنصار
كفر الألى قالوا الشمال ثلاثة ودعوا إلى إذلاله بالنار
نصبوا العصي على الحدود سفاهة وسعوا إلى توزيعه لضرار
المغرب العربي شعب واحد ملء العروق دم العروبة جاري
للشرق لا للغرب ولي وجهه فغدا له سندا لخوض غمار...⁽³⁶⁾

ويلمح زكرياء في هذه القضية ذاتها إلى أن ما تسعى إليه الثورة الجزائرية هو الإستقلال التام والسيادة الكاملة ، والثورة ترفض أنصاف الحلول ، وسياسة المراحل ، وهنا تعريض خفي لمن كان يدعو إلى الإذعان لسياسة الأمر الواقع ، والقبول بالجزء للحصول على الكل ، ويوضح منطق سياسة الثورة الجزائرية ومفهومها الذي استماتت من أجله وهو الاستقلال الشامل لكل أقطار المغرب العربي دون تجزئة وبدون تفرقة والا عتد استقلالاً لالا ناقصاً⁽³⁷⁾

ما بالهم يتصدقون كأننا نرضى من الأسلاب بالأشطار
لا تقبل الصدقات ، كلا إننا طلاب حق ، لا سمار عار
لا شيء إلا وحدة عريضة جسارة في المغرب الجبار
طالب بحقوقك كاملاً وحذار أن ترضى بأنصاف الحلول حذار

لقد حولت الثورة التحريرية الجزائرية التضامن المغربي إلى تلاحم رائع وجعلت من التراب التونسي ، والتراب المغربي ثرى مقدساً تعطره دماء الشهداء ، وبعداً استراتيجياً تمتد إليه معارك التحرير ، وتنطلق منه . كما تعززت الثورة الجزائرية بالأشقاء العرب الذين ساندوها بالتأييد في الميدانين السياسي والعسكري مما أعطى

للتضامن العربي الإسلامي وجهها ناصعا مشرقا ، هذه التحولات الهامة ظهرت انعكاساتها في شعر مفدي زكرياء في هذه المرحلة فلم تعد فكرة التوحيد خاصة بأقطار المغرب العربي وحدها ، بل إنها اتسعت لتظلل بجناحها كل الوطن العربي والإسلامي ، وأصبحت الدعوة الى مغرب كبير من أجل وحدة عربية شاملة ، كانت تلك فكرة الشاعر والثورة في سنتها الثانية .

رسول الشرق قل للشرق إننا	على عهد العروبة سوف نبقي
واما بالجزائر أنكرونا	سنخرق وصمة الاجماع خرقا
سيعترف الزمان غدا بأننا	سبقنا وثبة الأقدار سبقا
وأننا في الجزائر خير شعب	عروبتة مدى الأجيال وثقي
وأن الوحدة الكبرى ، اذا ما	تحررت الجزائر سوف تبقى .. (38)

وبعد استقلال الجزائر ازدادت الفكرة في ذهن الشاعر تأصيلا ، وأصبحت النظرية عقيدة يعتز بها ، وأصبح إيمانه بضرورة تجسيدها بالعمل هاجسه في كل قصائده ، سواء في القصائد التي كان يمثل فيها الجزائر في مهرجانات الشعر العربية أم في المناسبات الوطنية داخل المغرب الكبير ، وظل زكرياء وفيما لمبدئه يدعو اليه بحرارة حاضرا بوجدانه وبكيانه في كل التظاهرات المغربية فرحا أو ترحا ، ولم يؤثر على لهجته تغير الظروف السياسية بين أقطار المغرب ، واختلاف أنظمة الحكم السائدة فيها ، وهو اختلاف كان يراه الشاعر عارضا لا يثبت للزمن ، ثانويا لا يؤثر في جوهر القضية الحية في ضمائر الشعب المغربي ، إنه أشبه مايكون بهذا الغبار الذي يتصاعد من قوة السير وطول مداه . يتبدد في الأفق كلما قطعت المسيرة شوطا بعيدا ، ولكنه على كل حال لن يعرقل الأرجل ولو ضايق الأعين ومن ثم كان زكرياء صلبا في رؤيته ، يواجه بفكرته تلك ، كل تيار مضاد فيلاحق بالإدانة والمضايقة ويجازي بالنكر والجحود .

لقد امتدت النظرة الوحدوية لتشمل باقي الوطن العربي الإسلامي كما يدل على ذلك في قصيدة له بعد الاستقلال مباشرة .

ويا عروبة من أم لنا وأب	هنا العروبة دوحات وأغصان
هنا الأصالة في صلب وفي رحم	هنا القرارات تدبير ورجحان

هنا فلسطين تمتد انطلاقتها إن كان في العرب أنصار وأعوان
ونحن للوحدة الكبرى دعامتها إن كان في العرب تفكير وميزان
مدوا يدا بن دنيانا موحدة فما استقام بدنيا الخلف بنيان⁽³⁹⁾

ومن هذا المنظور كان ينظر الى المسلمين في بقاع الأرض على أنهم إخوة في الله ، ونظرته اليهم نظرة شمولية تجاوزت به منذ يفاعته كل الحواجز الاقليمية ، لتصبح نظرة تعانق كل البلاد الاسلامية بأقطارها الواسعة مشرقا ومغربا ، وهي نظرة تنطلق من المفهوم الصحيح للإسلام الذي يتميز بنظرته الإنسانية التي لا تتعصب لجنس أو لون أو مذهب . ومن هنا جاءت دعوته الى وحدة المسلمين صفا متراسا كما يطلب منهم القرآن الكريم ، ولتكن وحدة المغرب الكبير خطوة أولى في هذا السبيل :

هو المغرب الأكبر المستند	رسالاته من رسول الهدى
ووحدة مغربنا اليوم خطو	الى وحدة المسلمين غدا
بتوحيد بعض نوحده كلا	وهل ينكر الخبر المبتدأ
فربما كان مغربنا	مثالا قويا به يقتدى .. (40)

وعاش مخلصا لمغربه و (عقيدة التوحيد) في شغاف قلبه انى توجه ، يتغنى بها في أشعاره ويحلل أبعادها في أحاديثه المذاعة ، ويدافع عنها في مسامراته وندواته الأدبية ، كما دأب على تحقيقها عمليا بتنقلاته بين أقطار المغرب الكبير يعيشها معايشة المهتم ، متواجدا في الأفراح والأتراح مخلدا بطولاته ، مادحا زعماء مما جعل بعض منتقديه يتهمونهم بالتقلب السياسي ومجاعة الحكم ، وتقلق المسؤولين . ولم يكن يضيق بالمعاملات المتعسفة ، والمناورات المدسوسة بل على العكس من ذلك كان يعتز بعقيدته الوحدوية تلك ، معتدا قوي الإعتداد بسلوكه ذلك ، متجاوزا كل العراقيل والعقبات ، هازئا بكل الافتراءات والالتهامات ، ما إن تضيق به الظروف السياسية في الجزائر حتى يغادرها الى تونس ، وما أن يستبد القلق به في تونس حتى يطير الى الدار البيضاء ، وهو في كل ذلك لا يحمل لآخوانه هنا أو هناك حقدا أو ضغينة ، ولا يفكر في قطع صلة الرحم ولو كلفه ذلك استقراره وطأنينة نفسه ، حتى قصائد المديح التي خص بها زعماء المغرب العربي التي يعتبرها بعض النقاد غمزة في شعره

وحطاً من كرامته ، فإنه كان يراها مشاركة في التنويه بقيم الرجال ، واشهاراً لمواقف النضال فالمديح من هذه الزاوية داخل في إطار فكرته ، وملمحاً من صورة مغربة ، فإن المدح اشادة ببطولات المغرب الكبير مهما اختلفت النظرة الى تقييم الرجال وبطولاتهم وهؤلاء الزعماء - في نظر الشاعر - إشقاء النضال ، ورفاق الكفاح . لا بد من الوفاء لهم والاخلاص لصدقاتهم ، وذلك ما كان يعنيه بمثل قوله وهو يخاطب شعره :

أنت ألهمتني وما زلت طفلاً
وتغنيت منذ فجر شبابي
لم أزل صادحاً على كل غصن
عاشقاً كل ما به ، كل من فيه
مغربي جنة ، أفي جنة الله
واذا ما مدحت قومي أليسوا
أيها الشعر آية التوحيد
بالتحام القوى ودعم الجهود
من ذرى المغرب الكبير العتيق
ومن فوقه ومن بالبحود
سوى كل صالح وسعيد
من دمي ، من تراب أرض جدودي .. (41)

إن أهمية شعر مفدي زكرياء في هذا الاتجاه تكن في كونه شاعراً مارس العمل النضالي منذ يفاعته ، واكتوى بنار الثورة في كل مراحلها ، وواكب أحداث المغرب العربي السياسية في كل تطوراتها ، وتعرف الى مناضليه عن احتكاك وزمالة ، وجسد في شعره آلامه وآماله فغدا وثيقة حية تؤرخ لمدة نصف قرن من حياة المغرب الكبير : وشتان بين شعر شاعر يكتب للمناسبة العابرة ، وينفعل للعاطفة الآنية دون أن تربطه بها معاشية فعلية ، وبين شعر شاعر يحمل الفكرة عقيدة وينصهر مع الأحداث يعيشها بكل خفقة من خفقات قلبه وتصبح إيماناً راسخاً يتعمق شعره . هذا الإيمان الراسخ الذي جعل زكرياء مواطناً مخلصاً يعتبر وطنه في الخارطة الجغرافية يمتد من (أغادير) غرباً ، الى (صفاقص) شرقاً ، يلقي الحفاوة البالغة والتقدير العظيم من الإخوة الأشقاء في تونس والمغرب ويكون محل الرعاية والعطف من طرف زعماء المغرب الكبير يتلقى منهم الهبات السخية ، والهدايا القيمة ويحلون صدره بالأوسمة الرفيعة ، اعترافاً بنضاله ، وتكريماً لشاعريته ، ومن ثم كان يشعر بالمواطنة الحقيقية ، والطمأنينة والدفع أينما حل من أرض مغربه الشاسعة .

وظل زكرياء وفيما لعقيدته الوحدوية حتى أخريات أيام حياته لم يزده تنكراً

بعض ذوي القرى الا وفاء لمبدئه ولم يدخل الوحشة الى قلبه أن يظل رفيقه حتى النفس الأخير حقيقة سفره ، وشاءت الأقدار أن تكون رحلته الأخير وهو يودع الحياة الدنيا نموذجاً لهذه الرحلة الطويلة التي قضاها داعية الى توحيد المغرب الكبير فغادر الدار البيضاء على نية العودة ليلفظ آخر أنفاسه على ثرى تونس التي طال أموتها واحتضنته ، لتستقبل الجزائر جثثه ويدفنه أهله في مسقط رأسه . وهكذا شارك المغرب الكبير كله في توديعه ، وافتقد بفقده أحد رموز وحدته ، وأحسب أن لو مد القدر في أجل الشاعر مفدي زكرياء لرأى اليوم بعينه تبشير أمال الوحدة تلوح في أفق المغرب العربي الكبير تبدد ظلمة الافتراق شيئاً فشيئاً وتتعالى خيوطها النورانية لتصبح شمساً وهاجة تملأ قلب كل مغربي بالنور وتستصبح - طال الزمن أم قصر - آمال الأمس واقعاً ملموساً ، وكل من لم يؤمن بختية التضامن بين أقطار المغرب الكبير فما عليه الا أن يغير تاريخه وجغرافيته .

هوامش الفصل الرابع

- (1) ، (2) ، (3) ، (4) ، عناوين دواوين الشاعر المنشورة .
- (5) انظر ، لسان الشعب ، (1925/5/6) وهي يامضاء (ابن سليمان) .
- (6) لسان الشعب ، لصاحبها ، البشير الخنقي ، تونس ، (1921) .
- (7) الصواب ، محمد الجعابي ، تونس (1904) .
- (8) جاء ذلك في مقابلة أجراها معه بلقاسم بن عبد الله ، انظر الشعب الثقافي ، ع ، 4 ، (1972/8/5) ، ص ، 9 .
- (9) لسان الشعب ، ع ، (1926/5/6) .
- (10) المصدر السابق .
- (11) المصدر السابق المقدمة .
- (12) شعراء الجزائر في العصر الحاضر ، ج 1 ، ص 153 .
- (13) م . س .
- (14) النور ، ع : 48 (1932/8/30) .
- (15) انظر النور ، ع : 49 (1932/9/6) .
- (16) عليسة ديدون ، مؤسسة قرطاجنة ، والمقصود هنا ، هم أبناء تونس .
- (17) النور ، ع : 48 (1932/8/30) .

كتب صدرت للمؤلف

- 1 - المقالة الصحفية الجزائرية في جزأين ، ش . و . ن . ت . الجزائر 1978 .
- 2 - رمضان حمود حياته وآثاره ش ، و ، ك الجزائر 1985 ط . 2 .
- 3 - الصحف العربية الجزائرية (1847 - 1939) ش . و . ن . ت . الجزائر 1980 .
- 4 - أبو اليقظان وجهاد الكلمة ، الطبعة الثانية ش . و . ن . ت . الجزائر 1984 .
- 5 - أغنيات النخيل ، شعر ش . و . ن . ت . الجزائر 1981 .
- 6 - منتخبات من شعر الأمير عبد القادر ، ش . و . ن . ت . الجزائر 1984 .
- 7 - الشعر الجزائري الحديث دار الغرب الاسلامي بيروت 1985 .
- 8 - البراعم الندية (شعر للأطفال) ش . و . ن . ت . الجزائر 1985 .
- 9 - عمر راسم المصلح الثائر «لافوميك» الجزائر ، 1984 .
- 10 - أخبار الأئمة الرستمين ، ابن الصغير ، تحقيق بالاشتراك مع مجازا براهيم ، 1986 .
- 11 - مفدي زكرياء شاعر النضال والثورة ط . 1 غرداية 1984 .

تصنيف وتركيب عبد العزيز باباعمي

3 ، شارع 8 ماي 1945

بلكور - الجزائر

طبع المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية

وحدة الرغبة ، الجزائر

1989